IJAZ ARABI: Journal of Arabic Learning
DOI: 10.18860 /ijazarabi.V8i3.35671
ISSN(print): 2620-5912 | ISSN(online):2620-5947
ejournal.uin-malang.ac.id/index.php/ijazarabi/index

Arabic Stylistic Ibn Al-Khatib Al-Ghernati's Procedures Of Discourse In Prohibitions And Sermons

إجراءات الخطاب الأسلوبية في الزواجروالعظات عند ابن الخطيب الغرناطي

Ahmad Omar
ahmad_ali_omar@hotmail.com
Arabic Language and Literature, Faculty of Letters, Istanbul University

Abstract
Ibn al-Khatib's artistic prose is characterized by a variety of stylistic procedures in the discourse, as he diversified the modes of reception between authority, peers, and the governed, and he benefited in his discourse procedures from his vast culture, as Ibn al-Khatib brought together the culture of Andalusia. The reasons for the prose andity of his rhetorical procedures, as they mediate between direct stylistics and suggestive patterns, through comprehensive procedures, which consume all his prose, and share stylistic pillars that are not devoid of any genius statement, distributed among various styles in different books totaling over sixty publications. The research investigated his methods cautiously and traced the stylistics of discourse according to this collective space of his rhetorical procedures, especially since they are consistent in their general threads. However, I have found, after reading his non-lost product, a comprehensive reading, that there is a special style, characterized by each prose trend, while maintaining the major standard procedures that make the prose attributable to him, so I turned to one of his types, that related to prohibitions and sermons, with a rooting of the standard procedures that are common in his prose.
Keywords: Andalusian Prose, Ibn al-Khatib, Lisanud-Din, Prohibitions and Sermons, Discourse Procedures

مقدمة

تميَّز لسان الدين بن الخطيب بمزيَّات ذاتية وأخرى نسقية، تعود إلى طبيعة العصر الذي وُجد فيه، ذاك أنه عصر امتاز بوجود أنساق اجتماعية ودينية وسياسية متباينة؛ فقد حلَّت خلاصةُ التجارب تلك في الأندلس الصغرى غرناطة، مختلفة عن العصور التي قبله، ومختلفة في الوقت نفسه عن السنوات التي بعده، تلك التي غابت فيها صلابة النثر الأدبي القائم على أسلوب الصنعة، المبتعد في أسلوبيته عن طرائق الترسُّل الذي عرفته بغداد مع روَّاد أعلام النثر آنذاك، إذ كان الأندلسيون يتأثَّرون "بأترابهم المشارقة ولاسيما كبار الكتاب كابن المقفع والجاحظ، فحين اهتم ابن المقفع بالجانب النفسي في رسائله احتذى حذوه الإمام ابن حزم في طوقه، وكان الجاحظ من أكثر الأدباء تأثيراً فيهم، فقد كان محط إعجاب الأندلسيين، ولذلك حين صنع رسالته المشهورة (رسالة التربيع والتدوير) الهزلية رأينا آثارها الأسلوبية في رسالة ابن زيدون الهزلية، والحال هذه واضحة في تأثرهم

Copyright © 2025, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

بكبار كتاب المشرق، فلكل واحد منهم نصيب لدى الأندلسيين" (خالد، ٢٠٢١، ص ١٣). وقد أفاد ابن الخطيب من هذا التنوُّع المتباين، ووجّه له قلمه الغني بالتباين المعرفي كذلك، فالطبيعة الثقافية المتنوعة للسان الدين، التي وزعته بين كتب جغرافية وتاريخية ونفسية واجتماعية وأدبية، وغير ذلك من تخصُّصات حتمية في إنسان ذاك الزمان، أوجبت مقتضياتِ خطابٍ بإجراءات أسلوبية لا تجدها في القرن الثامن الهجري إلا عند لسان الدين، ومن يطالع نثر معاصريه يدرك تفرُّد ابن الخطيب في هذا المضمار، ولاسيما مع ابن خلدون (ابن العماد، ١٩٨٦، الجزء ١، ص ٧١؛ ابن الخطيب، ٢٠٠٣، الجزء ٣، ص ص ٣٧٧–٣٩٥؛ المقري، ١٩٦٨، الجزء ٦، ص ص ١٧١–١٩٢)، وابن مرزوق (ابن فرحون، ١٩٩٦، ص ص ٣٩٦–٣٩٩؛ التنبكتي، ١٩٨٩، ص ص ٤٩٩–٥١٠)، والنباهي(التنبكتي، ١٩٨٩، ص ٣٢٩–٣٣٠؛ المقري، د.ت، الجزء ٢، ص ص ٥–٧؛ ابن الخطيب، ١٩٨٣، ص ص ١٤٦–١٥٢)، وابن زمرك (ابن الخطيب، ٢٠٠٣، الجزء ٢، ص ص ١٩٦–٢٠٦؛ المقري، د.ت، الجزء ٢، ص ص ٧–٢٠٦؛ المقري، ١٩٦٨، الجزء ٧، ص ص ١٤٥–٢٦٦)، ولا يقتصر التفرُّد على جوانب النثر، بل امتدَّ كذلك إلى ضفاف الشعر، لكنَّ ظلال تبايناته تبدو أقل حدة منها في النثر، ذاك أن الشعر خطاب أكسية غير تجاوزية، بل تراكمية، تتيح للمبدع أن يرتاد فضاءاتها بمحدِّدات موروثة في الوزن والقافية، بخلاف النثر، الذي تبدو فيه الشخصية المعرفية باذخة التمايز والوضوح.

يضاف إلى ذلك كله، أن أسلوبية الخطاب عند ابن الخطيب موزعة بين أسلوبيات شتى في كتبٍ مختلفةِ المضامين المعرفية، تربو في مجملها على ستين مؤلفًا، ولذلك لا بد من تتبُّع المنهج الأسلوبي في كشف أسلوبية الخطاب، وَفق هذا الحيّز الجمعي للإجراءات الخطابية عنده، ذاك أنها أسلوبية متفقة في خيوطها العامة، إلا أنني وجدت بعد قراءة نتاجه غير المفقود، قراءة شاملة متقصية، أن هناك أسلوبية خاصة، يمتاز بها كل اتجاه معرفي، مع الإبقاء على الإجراءات الكبرى المشتركة بينها، تلك التي تجعل من النثر نثرًا منسوبًا إليه.

وبناء على ما سبق، نجد أن هناك إجراءات خطابية خاصة بالوعظ والزجر عند ابن الخطيب، ولعل الوعظ ينافي الزجر في منظومة الخطاب القرآني، الذي يُعلي من التوصيف القيمي لأسلوب الوعظ (ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) [النحل:١٢٥]، لكنَّ ابن الخطيب في إجراءات الخطاب عنده، جعلهما -الزجر والوعظ- واحدًا، أو كالشيء الواحد، أكسبه ذاك موقعُه السلطاني النخبوي، فأفضى إلى هذا المزج الذي لا يقبله مخاطَب، ما لم يكن محمولًا على قوائم السلطان والمكانة، وهو ما كان لابن الخطيب، المعروف بذي الوزارتين، وزارة الدفاع ووازرة الثقافة.

لقد تميزت إجراءات الخطاب بأسلوبية مائزة، وهو ما وقفتُ عليه في كتابه (أوصاف الناس في التواريخ والصلات، تليها الزواجر والعظات)، وقد ضمَّ الكتاب سبعًا وخمسين ومئة ترجمة، وقد جعله المحقق محمَّد كمال شبانة في قسمين، أورد في القسم الأول ترجمات ثبتت في كتاب لسان الدين بن

Copyright © 2025, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

الخطيب (التاج المحلى في مساجلة القدح المعلى) وعددها ثمان وتسعون ترجمة، وكتاب ابن الخطيب هذا يحتوي على مختصر لتاريخ غرناطة وتراجم كثير من أعيانها، وأثبتَ معظمَه في كتابه الريحانة (ابن الخطيب، ١٩٨٠، الجزء ٢، ص ص ٣٦١–٤١٠)؛ إذ قال: انتهى ما تم اختياره من كتاب التاج المحلى في مساجلة القدح المعلى. و(القدح المعلى) الذي قرن ابنُ الخطيب عنوانَ كتابه به، إنما هو عنوان كتاب لابن سعيد الأندلسي (الصفدي، ٢٠٠٠، الجزء ٢٢، ص ص ١٥٧–١٦٢؛ الكتبي، ١٩٧٣، الجزء ٣، ص ص ١٠٣–١٠٦؛ ابن فرحون، ١٩٩٦، ص ص ٣٠١–٣٠٢).

ثم أورد المحقِّقُ تراجم ابن الخطيب الواردة في كتابه (الإكليل الزاهر فيمن فضل عند نظم التاج من الجواهر) وعددها تسع وخمسون ترجمة، وكتاب (الإكليل) خصصه ابن الخطيب ليترجم لبعض الأعلام ممن عاصرهم، ويُعَدُّ تكملة لكتاب (التاج المحلى). وقد حفظ المقّري كثيراً من بنوده، وسبقه إلى حفظه من الضياع ورودُه عند لسان الدين في كتابة (ريحانة الكتاب)، فقد بيّن ذلك بقوله: "ومن ذلك ما ثبت في الإكليل الزاهر فيمن فضل عند نظم التاج من الجواهر" (ابن الخطيب، ١٩٨٠، الجزء ٢، ص ص ٤١١–٤٢٩). وقد ذكره محقّق أوصاف الناس في التواريخ والصلات تحت القسم الثاني "مما ثبت في الإكليل الزاهر فيمن فضل عند نظم التاج من الجواهر" (ابن الخطيب، د.ت، ص ص ١١٤–١١٥)، وقد ابتدأه ابن الخطيب بأبي عبد الله الساحلي، وأنهاه بوصف أحد الفضلاء (ابن الخطيب، ٢٠٠٣، الجزء ٣، ص ص ١٤٥–١٤٦).

وهذا الكتاب الذي نحن بصدد دراسته ورد كاملًا في الجزء الثاني من كتاب ابن الخطيب الباهر (ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب) ويُعَدُّ هذا الكتاب من أجلِّ ما تركه لنا ابن الخطيب، بل إن الدكتور عنان ذكر أنه أهم كتبه بعد الإحاطة (عنان، ١٩٦٨، ص ٢٥٣)، وقد سمّاه ابن الخطيب بالرّيحانة؛ لتنوّع بساتينه وتعدّد أفانينه، وقسَّمه إلى حمدلة ديوان، وتهنئة إخوان، وتعزية في حرب، وأغراض في الفتوح ومخاطبات الإخوان، والمقامات، وغير ذلك (ابن الخطيب، ١٩٨٠، الجزء ١، ص ٢٠).

تهدف الدراسة إلى فهم كيف انعكست أساليبه الأسلوبية على الظروف الفكرية والاجتماعية والسياسية في عصره، وكيف شكّلت مكانته السياسية النخبوية خطابه. ويتناول البحث، على وجه الخصوص، المزج غير المألوف بين الوعظ والتوبيخ في بلاغته - وهما مفهومان متمايزان في الخطاب القرآني - مجادلاً بأن هذا المزج يعكس مكانته بين النخبة الحاكمة والبيئة البلاطية التي عمل فيها. كما تدرس الدراسة تنوع أسلوبه النثري في مجمل أعماله، التي تتجاوز ستين عنواناً، لتحديد كل من الاختلافات الأسلوبية المتخصصة والسمات الشاملة التي تميز أسلوبه الأدبي.

منهجية البحث

ترتكز منهجية البحث على تحليل نصي وأسلوبي مفصل لأعمال ابن الخطيب الباقية. يجمع

Copyright © 2025, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

هذا المنهج بين السياق الأدبي التاريخي، والتدقيق الأسلوبي والبلاغي، والتحليل المقارن مع شخصيات أندلسية ومشرقية معاصرة كابن خلدون وابن مرزوق وابن زمرك. كما تتناول الدراسة الجهود التحريرية للباحثين المعاصرين، وخاصةً محمد كمال شبانة، الذي أعاد بناء نصوص ابن الخطيب ونظمها في أقسام موضوعية، مما يُسهّل فهمًا شاملًا لخطابه.

نتائج البحث ومناقشتها

وقد تضمن الريحانة كتب الزواجر والعظات، فعدت إليها مشفوعة بالتحقيق الذي قدَّمه شبانة، وهي أربع رسائل، كانت الأولى إلى ابن مرزوق، وهي الوحيدة التي نعرف مُخاطَبها الذي اتجهت الرسالة إليه، تليها ثلاث رسائل مجهولات الجهة.

١. إجراءات الخطاب الشاملة

يلاحَظ على أسلوبية الخطاب عند ابن الخطيب وجود إجراءات متناسقة شاملة، تستوعب نتاجه المعرفي كاملًا، وتتوزع على البنى النثرية كافة، من ذلك، ما نراه في التحميدات التي قدّم بها كتبه المختلفة، فقد اصطبغت بوحدة عضوية أتت على كامل النسق لهذا النوع من الخطاب عنده، واشتبكت في الوقت نفسه مع اتجاهات مضمونية أخرى تناولها في مجمل تصانيفه، مثل: التحميدات التي بدأت بها مصنفات بستان الدول، (ابن الخطيب، ٢٠٠٣، الجزء ٤، ص ٣٨٩؛ ابن المقري، د.ت، الجزء ١، ص ١٩٠)، وتخليص الذهب (ابن الخطيب، ٢٠٠٣، الجزء ٤، ص ٣٨٨ وما بعد) واللمحة البدرية في الدولة النصرية، وجيش التوشيح (المقري، ١٩٦٨، الجزء ٧، ص ٩٧ وما بعد)، ورقم الحلل في نظم الدول (المقري، ١٩٦٨، الجزء ٧، ص ١٠١). والسحر والشعر (ابن الخطيب، ٢٠٠٦)، وعمل من طب لمن حب (المقري، ١٩٦٨، الجزء ٧، ص ٩٧ وما بعد)، وروضة التعريف، أو كتاب المحبة (ابن الخطيب، ٢٠٠٣، الجزء ٤، ص ٣٨٨)، واستنزال اللطف الموجود في سر الوجود (ابن الخطيب، ٢٠٠٣، الجزء ٤، ص ٣٨٨ وما بعد)، والوصول لحفظ الصحة في الفصول (المقري، ١٩٦٨، الجزء ٧، ص ٩٧ وما بعد). وكذا ما نراه في المضامين الاجتماعية الباعثة على المدح أو التعجب أو الذم، يضاف إلى ذلك ما هو موزَّع في ثنايا خطاباته السلطانية؛ إذ تتسق كلها مع أكسيةٍ ذاتِ طابع عضوي موحد، في التزلف والاحتماء والالتجاء والتعرية غير المباشرة، وغير ذلك مما سيأتي بيانه.

أ. الظلال الشاملة

تُعَدُّ الافتتاحيات النثرية دالّة على مضمون النثر الحامل لها، ومُحيلة في الوقت نفسه على فكر الأديب وإجراءاته المباشرة التي لا حاجة للذهن فيها إلى الكدّ وإعمال الاشتباك للوصول إلى الغاية، وتحيل في أحايين أخرى على إجراءاته غير المباشرة التي يرسلها عبر الزمن، كما

Copyright © 2025, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

فعل ابن الخطيب أمام "سطوة السّلطة الّتي فتكت به ومحقت مكانته في نهاية مطاف مسيرته، ولم تكن تلك المهارات لولا مطيّة المواجد، فبها يعمل الماهر على بناء أفكاره من غير مُباشَرة تحيله إلى مساءلة، وقد أتقن ذلك في آليات تجلّي وجداناته وبرع في إيصال رسائله" (عمر، ٢٠١٩، ص ٢٤٤).

إن الإجراءات الخطابية الشاملة، في ظلالها الدينية، تتوافق مع معطيات ابن الخطيب المعرفية، "فقد انطلق في تناوله القيم الدينية من وعي معرفي ديني راسخ في ذهنه، لم يحتج في ذلك إلى تعمُّد صنعة فنية محددة تؤطِّر لذلك، إنما كانت تلك القيم حاضرة حين يستدعيها المقام" (خالد، ٢٠٢٤، ص ١٢٩). لذلك نراها تتموّج على مختلف النثر المتنوّع، فما دام في سفوح قمم المنظومة الدينية فإنها مشتركة في الإجراءات من مبتدئها إلى منتهاها، حتى في الظلال الصوفية التي تشبَّع بها مُثاقفةً لا سلوكًا، بل في ما خالف فيه رُوَّادَها وأعلامها، نجد الإجراءات المشتركة في ظلالها الدينية، باذخةَ التقاطعِ كثيفةَ الاشتجار، في التحميدات التي قدَّم بها مصنّفاته، وفي رسائله كثيرة الأغراض، من صدقات وبيعات، وفتوحات ومراجعات، وتهاني وتعازي في الحوادث والنائبات، وكذلك في كتب الشفاعات والشكر على الهدايا، وتقرير المودات، وما صدر في مخاطبة الرعايا والجهات، وظهاير الأمراء والولاة، حتى في الدعابات والفكاهات، والمقامات، والزواجر والعظات (ابن الخطيب، ١٩٨٠، الجزء ١، ص ص ٢١، ٨١، ١٢٧، ٢١٦، ٣٢٦، ٣٤١، ٣٨٨، ٤٢٤، ٥١٣؛ الجزء ٢، ص ص ٥، ٦٤، ٢٢٦، ٢٤٦، ٤٣٠). ولو انتقلنا إلى مدحياته ذات الظلال الدينية، نجدها ملأى بالتكثيف وتضمين أفكار التّصوّف، تلك التي تطالعك التحميداتُ فيها، فهي في النهاية إجراءات كبرى مشتركة، تُلقي بأفيائها على النثر كله عنده، فمن إجراءات الخطاب الشاملة وجود التكثيف، المستوحى من عبقريته في التغميس من طيف البديع البلاغي، "محمد رسوله ذو المعجزات الباهرة والآيات الكِبر" (ابن الخطيب، ١٩٨٠، الجزء ١، ص ١٤١). وهو "مجاهد الأنبياء المنصور في الأرض بملائكة السّماء" (ابن الخطيب، ١٩٨٠، الجزء ١، ص ١٥٢). بل إنّه "أمان العباد عند اشتداد المخاوف، والظل الظليل الوارف، وغمام الرّحمة الواكف، المنقذ بنور هداه من المتالف" (ابن الخطيب، ١٩٨٠، الجزء ١، ص ١٧٢)، وهو "الرؤوف الرّحيم الموصوف في كتابه العزيز بالخلق العظيم، الهادي إلى السبيل الواضح والطريق المستقيم" (ابن الخطيب، ١٩٨٠، الجزء ١، ص ٢٣٦). وهو "رسوله الذي سلّ من الحق حساماً منتضى، وندب إلى التماس الخلال التي تحمد والأخلاق التي ترتضى" (ابن الخطيب، ١٩٨٠، الجزء ١، ص ٣٨٩). وهو "الذي حاز المجد صرفًا والشرف بحتًا، ونال من الكمال البشري غاية لا تحدّ بإلى ولا حتّى، خير من ركب ومشى، وصاف وشتى" (ابن الخطيب، د.ت، ص ١).

Copyright © 2025, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

وهو "قلادة الجيد المجيد، وهلال العيد، وفذلكة الحساب وبيت القصيد، المخصوص بمنثور الإدلال، وإقطاع الكمال، ما بين مقام المراد ومقام المريد، الذي جعله السبب الأوصل في نجاة الناجي وسعادة السعيد"(ابن الخطيب، د.ت، ص ١٦١). فالتكثيف المسجوع الذي ألزم نفسه به، يشترك في البنى الخطابية الدينية لمختلف ضروب النتاج المعرفي عنده، فهو بهذا المشترَك الإجرائي يتّخذ من محبة النبيّ صلى الله عليه وسلم مظهرَ وجدانٍ يستنزل به لطف الله في هذه الجماعة التي تعصف بها كفُّ الحروب، وهو ما نراه في خطاباته المضمنة في بيعات الملوك وفتوحاتهم ومراجعاتهم، وكذا في ما خطَّه في التهاني والتعازي والحوادث، وفي ما كتبه في الشفاعات الدينية والدنيوية، وفي ما صدر عنه أو عن أمرائه في مخاطبة الرعايا والأمراء والولاة، بل في ما رأيناه في الدعابات، إنها تشترك جميعها، في إجراءات مشتركة شاملة، لكنها أظهر ما تكون عليه في ظلالها الدينية التي تمحَّضت لغرضها.

ب. الظلال المتقاطعة

إن الإجراءات الشاملة عند ابن الخطيب، وإن احتفظتْ بأنساقها المتشابهة في البنى المضمونية المتنوعة، إنها مع ذلك، تحتفظ ببعض الخيوط المائزة، تلك التي تحفظ لها صبغتها الخاصة، مع اشتجار أسلوبي يحيلها إلى السقف المشترك لتلك العائلة الأسلوبية التي أوجدها ابنُ الخطيب، فالإجراءات الخطابية بهذا تتوزَّع بين نسقين: ١) نسق مؤطَّر بالمرجع المعرفي العام عند الأديب، ذاك الذي يولّد أنماطًا مشتركة في الإجراءات الخطابية، سواء أكان ذلك في الأسلوب أم المضمون، لا يخرج عنهما إلّا في استزادة مكتسَبة من رصيد معرفي وافد، أو في التماح جزئي يشكّل الهُويَّة النَّصيَّة جزئيًّا. ٢) نسق مؤطَّر بطابع الذاتية عند ابن الخطيب ورؤيته وأدواته التي يتعامل بها مع الموقف، بل مع كل موقف على حدة، ونلمح ذلك في نصوص العاطفة عنده، فلربما يصل إلى النسق المحظور في الإجراءات الخطابية، وفاء للعاطفة التي غذّته فغذَّاها بالتعبير المفضي إلى طبيعة التغذية وحقيقتها، على الرغم من أنَّ "التّصوّر الإسلاميَّ حيال هذا النمط واضحٌ وضوح الشّمس، يعدُّ لجوء الإنسان إلى الله تعالى وحده لا شريك له من أهمِّ مبادئ العقيدة الصَّحيحة، والخروج على هذا المبدأ يمثّل انحرافاً في فهمها" (تيم، ١٩٩٤، ص ٢٩١)، ومع ذلك نرى ابن الخطيب يؤطّر الإجراءات الخطابية ذات الظلال الدينية بتقاطعات ذاتية، جعلت النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم "مؤمل الأنفس العائذة، وملجأ الأكفّ المضطرّة" (ابن الخطيب، ١٩٨٠، الجزء ١، ص ٤٠١).

إن الواقع الذي يحيط بالأديب يجعله يتقاطع في إجراءاته الشاملة مع إجراءات ذاتية تهبها اللحظةُ الحاسمة، تلك التي توجب عليه الوفاء لوقفة الشعور تلك، فالاشتجار والتقاطع هنا لا يتوقَّف على إجراءات خاصَّة، حتى لو كانت الإجراءات الشاملة أكثر حضورًا،

Copyright © 2025, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

جمالية وفنية وبلاغية، إنها في النهاية، تستقصي الاشتباك مع معطيات الواقع الاجتماعي والسياسي، لتنصهر جميعها في طابع الذاتية، وعليه فقد كان التقاطع هنا محاولاتٍ من المبدع حثيثةً لحلّ الإشكالية بين النسق المعرفي العام، ذاك الذي يُنتج إجراءات خطابية شاملة، وبين العلائق الواقعية المعقَّدة تلك التي تسيطر على اللحظة الإبداعية. إن البحث في الظلال المتقاطعة المشتجرة في الوقت نفسه مع الإجراءات العامة، يُكوّن الشخصيةَ الأدبية التي نميز بها بين هُويات الإبداع، ولا سيما أن ابن الخطيب اعتمد في كثير من إجراءات الخطاب على أن يخفي عن السلطة، أو عن المجتمع، رسائلَ غامضة، ولو أن الإجراءات الخطابية بقيت عامة هنا، ما استطعنا وضع الأصابع على تلك الغايات.

ج. الظلال الموجّهة

درَجَ الإنسانُ منذ طلائعِ بيانِه اللغوي على الانزواء خلف العاطفة، متشوقًا، أو عاشقًا، أو واصفًا، أو مهاجرًا، أو واعظًا، أو راثيًا، أو هاجيًا. فالعاطفة بهذا، سلوك إجرائي موجِّه، مهما اتخذ الأديب حيالها من إجراءات أسلوبية ملزمة، إنها تنفلت أمام مؤثرات عاطفية قادمة.

وقد تأرجح ابن الخطيب وَفق هذا التصوُّر بين صدق العاطفة وبين خفوتها، لتتكوَّن إجراءات خطابية مغايرة، عبر أسلوبية خطاب عامَّة وأخرى خاصَّة موجِّهة، بحسب الطبيعة العاطفية التي تُوجِّه الإجراء الخطابي، ففي أسلوبية الخطاب الصوفي نجده قد أتى على لون واحد من الأنساق، أو نسق واحد من الألوان، حافَظ عليه في مختلف الضروب المعرفية التي تناولها الخطاب الصوفي عنده، وهو ما نلحظه في النصوص كافة، بصفتها المجلى الأول عن الإجراءات الخطابية المتنوعة في فنه النثري، وما يحويه من مؤثرات متنوعة، سواء أكان ذلك في الإطار التاريخي، أم في الإطار الاجتماعي، أم في الإطار السياسي، أم في الإطار الرديف، من رسائل أراد أن يقولها لنا، ولا سيما في رحلاته، تلك التي حفل بها كتابه (خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف). حتى لو تتبعنا الإطار الاجتماعي وحده، سنجده رديفًا للإطار السياسي في تأثيراته البالغة، تلك التي أوجدت الظلالَ الموجِّهة لابن الخطيب قبل أن تكون في متلقي نتاجه، وذلك عبر الإجراءات الأسلوبية التي شكَّلتِ الإجراءَ الخطابي المفعم بالعاطفة، فهي في مجملها تترنح بين المباشرة وبين الانزواء، كحديثه عن حسد الأقران، والخوف الجمعي، والفهم الأحادي العقيم في استنطاق النصوص وتأويلها.

وجَّهت العاطفةُ ظلال الأنساق عند ابن الخطيب، وصنعت إجراءاته الخطابية، وأشد ما ولَّدته تلك العاطفةُ عنده، ذاك الخوف الذي ألبسه أكسيتَه من ولادته إلى مماته، محاطًا بالانقضاض الحتمي على غرناطة، ومحاطًا بالتباغض والتحاسد والتدافع غير النزيه، وقد أبلى ابن الخطيب فيها بما استطاعه من شكيمةِ بغضاءٍ وشوكةِ حسدٍ، "سعياً إلى طموح

Copyright © 2025, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

المجد، وكان هذا سرّ مأساته (بالنثيا، د.ت، ص ٢٥٧).

إنَّ الخوف بهذا عامِلُ توليدٍ مهم للعاطفة التي شكَّلت إجراءات ابن الخطيب، وما دام الخوف دلالةً على ما لا أُنْس فيه، سنجد ابن الخطيب يتخذ إجراء خطابيًا مغايرًا في الدلالة النفسية، عبر تحوير النسق المصاحب للخوف، ذاك الذي يعرفه كل إنسان، عبر ربط بالمحبة، تلك الدلالة المشبَعة بالأُنس والأمان والاطمئنان، فالخوف "إن كان سببه تذكّر تقصير كان ندمًا، وإن كان تألمًا لفوات محبوب في الماضي، أو نزول مرهوب في الآتي تمخض خوفًا (ابن الخطيب، د.ت، الجزء ٢، ص ٤١٠)، فلم يكتف ابن الخطيب بهذا الإجراء الخطابي الذي يخفف من ثقل الخوف، بل راح ينتقل في بعد الخوف بين الدلالة الماضوية والمستقبلية، فالفوات إن لم تكن له وسائل علاجٍ فإن الإنسان يقنط ويكتئب، ذاك أنه خسران غير مستثمَر بالفلاح، إلا أن سياق الخطاب عنده جعله ينتقل إلى ظلال عاطفية مؤنسة، عبر شيوع الرحمة والعفو والمغفرة، تجعله في الماضي ندمًا، ولِما هو آتٍ خوفًا، وكل ذلك ابتغاء نجاة الإنسان؛ إذ إن المستقبل في مقدوره بخلاف ما فات؛ ولأن "الجهد إذا اتَّجه إلى الحصول على ما ينفع الإنسان ويحقق سعادته المطلقة عُدَّ في حقيقة الأمر توازناً وانسجامًا (تيم، ١٩٩٤، ص ٢٦٤).

توزّعت مستويات الإجراءات الخطابية بحسب الموضوع الذي تناوله ابن الخطيب في مصنَّفاته، وبحسب القوى العاطفية الموجِّهة في النص النثري، لكنها بعامّة، مشتملةٌ على معالجات متشابهة بحسب الموضوع، وعن أي شيء كان، لنجد أنها متقاطعة مع خيوط شاملة، مضمَّنة في أنساق أخرى، في دائرة التأثير الفكري، فالخوف وحده فاعلية عظمى، تجلى في إجراءاته النثرية كاملة، وإن كان قد احتفظ ببعض التقاطعات المائزة، لكننا نجده يشترك في الإجراء الخطابي الشامل، فعندما يعترض بجملة اعتراضية، في وصف المدن، كوصف غرناطة وغيرها، إنه يذكر بعدها: حرسها الله (ابن الخطيب، ١٩٨٠، الجزء ١، ص ٤٩٢؛ الجزء ٢، ص ٤٣) "فقد جرت عادته أن يدعو للمدن التي يصفها بـ(حرسها الله) أو (حفظها الله)، وكان ذلك الدعاء منه يخفي خلفه دلالات قلقة تعبِّر عن حالة المدينة التي غالبا ما كان يخاف عليها من عدوٍّ متربِّصٍ" (خالد، ٢٠٢٤، ص ١٢٠)، وإنْ ذكر ما سُلب من المسلمين قرن الوصف بـ "أعادها الله"، كحديثه عن قرطبة (ابن الخطيب، د.ت، ص ٤٤)، وهذا التوجيه العاطفي للإجراء الخطابي عنده، لا يتوقف على هذا، بل يسحبه ليمتد إلى وصف سكان الأندلس، بحيث يتقاطع الوصف في ظلال العاطفة الموجهة، فقد رأينا إجراءات خطابية متشابكة، تعيدنا إلى المربع الأول، في الظلال الشاملة، وفي الظلال المتقاطعة، وفي الظلال العاطفية، فهذا فحص غرناطة المشبَّه بالغوطة الدّمشقيّة "قد دحاه الله في بسيط

Copyright © 2025, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

تخرقه الجداول والأنهار" (ابن الخطيب، د.ت، ص ٤٥)، وأما الناس في المدن التي ذكرها في (معيار الاختيار)، فأهل برشانة (الحميري، ١٩٨٤، ص ٨٨؛ ياقوت الحموي، ١٩٩٧، الجزء ١، ص ٣٨٤؛ الإدريسي، ٢٠٠٢، ص ٥٣٧) "عندهم للمجون سوق، وللفسوق ألف سوق، وأنّ وغدها يتكلّم بملء فيه، وحليمها يشقى بالسّفيه" (ابن الخطيب، ٢٠٠٢، ص ١٠٦)، وأما أهل مالقة (الحميري، ١٩٨٤، ص ص ٥١٧–٥١٨؛ الإدريسي، ٢٠٠٢، ص ص ٥٣٧، ٥٦٥، ٥٧٠). فالتفاوت الطّبقيّ بين أبناء المجتمع بينهم ظاهر، بحيث أن فقيرها "لا يفارق الأحزان، وجوعها ينفي به هجوعها... وتعلو على الموازين غير القسط أصواتها" (ابن الخطيب، ٢٠٠٢، ص ٩١).

وعندما يذكر النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فإنه يستحضر أنَّه نبي نُصر بالرعب، استئناسًا بالحديث النبوي "نصرت بالرعب مسيرة شهر" (مسلم، د.ت، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ٥٢١؛ البخاري، ١٤٢٢هـ، كتاب التيمم، حديث رقم ٣٣٥، الجزء ١، ص ٧٤؛ البخاري، ١٤٢٢هـ، الجزء ٤، ص ٥٤)، فالرسول منصور "بالرعب من جنوده الناصرة، المحروس بحراسة الملائكة الواقية الوافرة... وأصحابه وعترته وأحزابه المجاهدة الصّابرة... يخوضون لأن تكون كلمة الله هي العليا في بحار الروع الزاخرة" (ابن الخطيب، ١٩٨٠، الجزء ١، ص ٢٠٨).

إن هذه الإجراءات الخطابية عند لسان الدين لها فاعلية في الحقيقة، بين الذات الإنسانية والقوى الفاعلة، ونجد ذلك ممتدًا إلى الخطاب المتعلِّق بالنصح والوصية والزجر والوعظ والتشوق والترجمة والتوصيف والرحلات، للمزيد حول دلالات الخوف في رحلات ابن الخطيب يُنظر: (خالد، ٢٠٢٤، ص ص ١١٨–١٢٣)، وكذلك ما يصقل الرؤية الكونية عنده، من فلسفة الحياة والموت، والتجليات الخطابية التي تدعو إلى الحركة بعد السكون، لنجد أنها إجراءات خطابية لا تقتصر على الأسلوب جمالًا وقبحًا وتصنُّعًا واسترسالًا، بل في أنها كلها عوامل محفّزة على تنامي الاتجاه الفاعل في عصرٍ مترَعٍ بالسكون المفضي إلى الموت، بهذا كانت الظلال الشاملة كلها متشابهة في استلهام معاني الحثِّ على النهوض.

٢. ظلال التمحيض الإجرائية

إن الإجراءات الخطابية المشتركة التي رأيناها في نتاج ابن الخطيب، الموزعة بين مصنفاته المختلفة، تدلّ على وجود أنساق تعبيرية مشتركة تتضمن خطابه في نتاجه المعرفي كليًا، بحيث يكون هذا الخطاب جامعًا لمضامين متنوعة ومجالات متعددة، لكننا، في الوقت نفسه، نلحظ وجود إجراءات خطابية مخصوصة لغايات محددة، ذاك أن بعضها ممحوض للوعظ والإرشاد، وبعضها متصل بالنصح والزجر، وأخرى تنتمي إلى فضاء التصوف والمحبة والزهد، كما نجد منها

Copyright © 2025, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

ما يرتبط بالتهاني، والتعازي، والشكر، ومخاطبة الرعايا والجهات، إضافة إلى مخاطبة الولاة والأمراء، وكذا ما يتعلق بأساليب المقامات والرحلات، حتى الدعابة والفكاهات.

كل تلك الأنساق تشتبك ضمن إطار معرفي متماسك، يصدر عن ذاتٍ واعية، تشكّلت في أفق ثقافي خاص بابن الخطيب، ومع ذلك، نجد أن بعض هذه الإجراءات يتمايز وينفصل عن غيره من الأنساق، لتكون لما تمخَّضت له، ففي نسق التهاني، نرى إجراءات خطابية ممحوضة لهذا النوع من النتاج المعرفي عند ابن الخطيب، وكذلك الأمر في كتب التعازي والحديث عن الحوادث والنكبات، أو في كتب الشفاعات، نجد جميعها، تختص بأنماط أسلوبية معينة وإجراءات خطابية تكشف عن أنماط تحفظ هوية هذا اللون من النثر المعرفي.

وعندما ننتقل إلى نتاج ابن الخطيب المعرفي المتعلق بالتواريخ، والصلات، والعظات، والزواجر، نجد أن تلك النصوص تحمل في طياتها أنماطًا خطابية ممحوضة لذاتها، مع التنبيه على أن هذه الأنماط تتداخل أحيانًا مع النوع الأول الذي فصّلتُ القول فيه؛ إذ نجد عناصر مشتركة، ومتقاطعة، وموجّهة بين الأنساق كلها، غير أنَّ هذا الباب يكشف عن أبعاد دلالية لا نجدها موزَّعة على المساحة نفسها التي رأيناها في النمط الأول، ولا تغطي الامتدادَ المعرفيَّ الشامل، الذي أفاض ابن الخطيب فيه.

أ. الإجراءات الموحية

تُعَدُّ الزواجر والعظات التي سجَّلها ابن الخطيب في نتاجه المعرفي، من الإجراءات الممحوضة لنوع مخصوص من الخطاب؛ إذ إنها تُظهر التماحًا ذكيًّا في قراءة طبائع المجتمع الأندلسي في غرناطة آنذاك، فقد جاءت في سياق اجتماعي وسياسي ضاغط، عانت فيه غرناطة من عوامل رعب داخلية وخارجية، وكانت بطبيعة الحال شديدة التأثير؛ ذاك أن السلطة الحاكمة -بنو نصر- تمارس بطش الجبابرة على كل من يخالفها، وهو ما نجده يودي بابن الخطيب نفسه نهاية المطاف، فقد عانى من ونًى لا احتمال له، ومن شقاءٍ لا قدرة على الصبر عليه، بل كانت هذه المعاناة ممّن كان سببًا في وجاهتهم، كتلميذه ابن زمرك، إذا به بعد فيض من الاحترام والتبجيل، يتتبَّع زلّات أستاذه ابن الخطيب، لينتهي الأمر به إلى أن يذهب إلى فاسَ للإشراف على إعدام أستاذه (المقري، د.ت، الجزء ٢، ص ١١؛ بروكلمان، ١٩٦٨، ص ٣٣٦). كما أن الارتباط بين الحاكمين والمحكومين ضعُف، ولم يبقَ من رابط إلا الدين وبعض هوامشه؛ لذا رأينا بني نصر يُكثرون من ظواهر التديّن، فهو الرباط الوحيد النهائي، ولذا شجَّعوا على الاحتفال بالمولد النبوي، لتعزيز هذه الصلة الأخيرة، ذاك أن العوامل الاجتماعيّة والسّياسّية أدت إلى إفراز أدب المدح النّبويّ فالمولديّات، لأنّ الإنسان يفزع عند الهموم إلى معتقده في آليّة الاستئناس، والمسلمون يعتقدون بالقيامة وأهوال

Copyright © 2025, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

الموقف، وأنَّ النَّجاة بالشَّفاعة معطاةٌ لنبيّ الخلق، وهم بعد هذا "مجمعون على أنّه ينبغي أن نرغب إلى الله تعالى في أن يجعلنا من أهل شفاعته عليه السّلام" (الرازي، ١٩٨٨، ص ٤١). ولم يجد أهل غرناطة إلا المولد لتكريس هذه الرغبات، فالمجتمع بهذا غير مستقر، تنتابه عواملُ رعبٍ كثيرة، وتحاط به وسائل امتعاض لا تخفى، لذا كانت الزواجر والعظات عند ابن الخطيب ذات ظلال موحية عن هذا الواقع السياسي المأزوم المتمزق، ليس الآن فقط، بل قبيل ولادة ابن الخطيب بثلاثة قرون، بل سبقت هذه المدّة أحداثٌ خطيرةٌ، حاضرة كلها في وعي ابن الخطيب، ولم تكن في خطورتها كما الحال مع ملوك الطّوائف، إذ تمزّق الجسد إلى أشلاء، ففي قرطبة استقلّ أبو الحزم (الحميدي، د.ت، ص ٢٧٠؛ الذهبي، د.ت، الجزء ١٧، ص ص ١٣٩–١٤٠؛ الضبي، ١٩٨٩، الجزء ١، ص ٣١٩). وفي إشبيلية بنو عبّاد، والعامريون في بلنسية، وفي سَرَقُسطة (الحميري، ١٩٨٤، ص ٣١٧؛ الإدريسي، ٢٠٠٢، ص ص ٥٥٤–٥٥٦) بنو توجيب، وفي مرسية محمد بن يوسف بن هود (الذهبي، د.ت، الجزء ٢٣، ص ص ٢٠–٢٢؛ ابن الخطيب، ٢٠٠٣، الجزء ٢، ص ص ٧٤–٧٧). وفي بَطَلْيُوس (الحميري، ١٩٨٤، ص ٩٣؛ الإدريسي، ٢٠٠٢، ص ٥٤٥) الأفطس محمد بن عبد الله (ابن بسام، ١٩٩٧، الجزء ٢، ص ص ٦٤٠–٦٤٦؛ ابن الآبار، ١٩٩٥، الجزء ١، ص ص ٣١٧–٣١٨)، وفي غرناطة بنو زيري، وفي طليطلة (الحميري، ١٩٨٤، ص ص ٣٩٣–٣٩٥؛ ابن الدلائي، د.ت، ص ص ٣–٤) بنو ذي النون، وفي المَرِيَّة (الإدريسي، ٢٠٠٢، ص ص ٥٦٢–٥٦٦؛ ابن الدلائي، د.ت، ص ص ٨٦–٨٩) بنو صمادح، وفي السهلة (المقري، ١٩٦٨، الجزء ١، ص ١٦٦؛ ابن عذاري، ١٩٨٣، الجزء ٣، ص ص ١٨١–١٨٢) عبد الملك بن رزين (ابن الأبار، ١٩٨٥، الجزء ٣، ص ص ١٠٨–١١٥). وأمّا الصقالبة فتيان المنصور بن أبي عامر (ابن الأبار، ١٩٨٥، الجزء ١، ص ٢٦٨؛ ابن عذاري، ١٩٨٣، الجزء ٢، ص ٢٥٦) فقد استقلّوا في دانية (الحميري، ١٩٨٤، ص ص ٢٣١–٢٣٢؛ الإدريسي، ٢٠٠٢، ص ص ٥٥٦–٥٦٠).

أمَّا مِن الخارج، فكان الأندلسيون في غرناطة يرزحون تحت ضغط مستمر لا يتوقف ولا يهدأ، ولا يدع الناس يهدؤون، يتوقعون فيه انقضاض الممالك النصرانية الشمالية في أي لحظة، ليشكّل هذا الترقّب المرهق، المقرونُ بالبطش الداخلي، عاملًا اجتماعيًّا، تجلّى بوضوح في إجراءات الخطاب الموحي عند ابن الخطيب، وكان مما قاله لابن مرزوق: "أطلقك الله من أسر كل الكون، كما أطلقك من أسر بعضه، وزهّدك في سمائه، وفي أرضه، وحقّر الحظَّ في عين بصيرتك بما يحملك على رفضه... ليت شعري ما الذي غبط سيدي بالدنيا، وإن بلغ من زِبْرجها الرتبة الأولى، وأغرض المثال بحال إقبالها، وأصلح بالها وخشوع جبالها.

Copyright © 2025, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

وضراعة سبالها، ألِتَوقُّعِ المكروه صباح مساء، وارتقاب الحوالة التي تزيل من النعم البأساء، لزوم المنافسة التي تعادى الأشراف والرؤساء... ألِوزير يصانَع ويدارى، وذي حجة صحيحة يجادل في مرضاة السلطان ويمارى، وعورة لا توارى، ألمباكرة كل عاجب حاسد، وعدو مستاسد، وسوق للإنصاف والشفقة كاسد وحال فاسد.. ألِشرار يسملون عيون الناس باسمك، ثم يمزقون بالغيبة مزق جسمك... وما الفائدة في فرش تحتها جمر الغضا، ومال من ورائه سوء القضا؟ وجاه يحلق عليه سيف منتضى (ابن الخطيب، د.ت، ص ص ١٤٩–١٥٢).

تُظهر الإجراءات الخطابية في هذه الرسائل أبعادًا اجتماعية عميقة، تُفصح عن طبيعة المجتمع الغرناطي في ذلك الزمن، فالرسالة الموجَّهة إلى ابن مرزوق، تكشف نبرة تقريع واضحة بسبب تعلّقه بالدنيا، وتعرض تساؤلًا ضمنيًّا عن الجدوى من هذا التعلُّق في ظل الأحوال المحيطة به، بحيث لا يستطيع أن يذمَّها ذمًّا مباشرًا وإلا كان في مواجهة مباشرة مع السلطة، بذا كانت الإجراءات الخطابية موَّارة بالتواري والإيحاء غير المفضي إلى المحاسبة.

ولم تقتصر هذه الإجراءات الخطابية الموحية على رسائل الزجر والوعظ، بل اشتبكت مع الظلال الشاملة، وهو ما رأيناه في رسائله السياسية إلى أمير مكة والمدينة، لكنها هناك محض لمحات بين سطورِ وصفِه، ومع ابن مرزوق ممحوضةٌ لوصفه، ففي رسالة إلى صاحب مكة نراه يترك ما اعتاده من تجميل الواقع وتزويره، مما غصَّ به كتابه (ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب)، ليذكر حقيقة واقع الأندلس الذي زيّفتْه أكثرُ رسالاته "ونحن نعرّفكم بأحوال هذا القطر...اعلموا أنّ الإسلام به مع الحيّات في سفط حرج وأمر مرج، وطائفة الحقّ قليلٌ عددها، -يشير إلى الحديث النبوي "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق..." (البخاري، ١٤٢٢هـ، كتاب الاعتصام، حديث رقم ٦٧٦٧؛ مسلم، د.ت، كتاب الإمارة، حديث رقم ١٩٢٠)- منقطعٌ إلَّا من الله مددها، مستغرقٌ يومها في الشدَّة وغدها... والشُّهداء تنوش أشلاءَهم القشاعمُ، وتحتفل لها منهم المطاعم... والمآذن تجيبها النواقيس مناقضة... وعدد المسلمين لا يبلغ من عدد الكفَّار عند الانتثار معشار المعشار" (ابن الخطيب، ١٩٨٠، الجزء ١، ص ص ٢٠٩–٢١٠). وفي رسالةٍ إلى أمير المدينة "من حمراء غرناطة - حرسها الله - ونعم الله يحوك حللها الجهاد، والسيوف الحداد، وتلبسها البلاد والعباد" (ابن الخطيب، ١٩٨٠، الجزء ١، ص ٢١٤). لقد حفلت الإجراءات الخطابية بظلال موحية دلَّت على أحوال المجتمع الأندلسي في زمنها، وربما تشير أيضًا إلى ملامح من شخصية ابن الخطيب نفسه. فحين نُطالع رسائل أخرى له، نجده يوجّه النقد إلى سلوكيات وقع فيها هو نفسُه، مما يُضفي على خطابه بعدًا اعترافيًّا، ويُضفي على نثره طابعًا واقعيًّا، استمطرناه من الظلال الموحية للإجراءات

Copyright © 2025, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

الخطابية الخاصة بهذا اللون من البيان.

وكذا في رسالته الرابعة، نجد الظلال الموحية إلى السقم في الفهم، ومواداعة الفقر والخذلان رضا بالهوان، "ما الذي رابكم -آنس الله اغترابكم- من سيرة السلف الذين تجروا وكسبوا، وانتموا لغنى الأكُفِّ وانتسبوا، وتصدَّقوا ووهبوا، وجاهدوا وحجوا، وما انحرفوا ولا لجّوا، وبسيرة أعلامهم احتجوا، وسعوا والتمسوا، وأكلوا الطيب ولبسوا، وجوارحهم بميزان الشريعة أرسلوا وحبسوا، وشهد لهم بالخلاص عقدهم الذي حفظوا ودرسوا، لم يزمعوا لغير الضرورة طلاقا، وأشفقوا من فراق أهليهم إشفاقا، ولا حلوا لحسن العهد نطاقا، ولا قتلوا أولادهم إملاقًا، ولم يضرهم -مع الاستقامة- معاشهم، ولا قطع بهم -عن الله- أثاثهم، ولا رياشهم، بل إلى فئة الحق انحياشهم، وأنتم على الحقيقة، ومن لكم بذلك أوباشهم" (ابن الخطيب، د.ت، ص ١٧٩). إن الظلال الأسلوبية الموحية التي تكتنف هذا اللون من النثر تتشابك مع الإجراءات الخطابية الشاملة التي سبق الحديث عنها، مشكّلةً مزيجًا دلاليًّا يعكس وعي ابن الخطيب وسعة أفقه، ويهب مدخلًا غنيًّا لفهمِ مجتمعه وموقفه منه.

ب. الإجراءات الخطابية المباشرة

مزجَ ابنُ الخطيب في إجراءاته الخطابية بين ظلالٍ موحية وأخرى خطابية مباشرة، بحسب تعلُّق كل واحدة منها بطبيعة المخاطَب وظرف الخطاب، فحين يكون الخطاب موجَّهًا إلى السلطة أو في سياق سياسي، فإنه يلجأ إلى ظلال تُتيح لنا أن نستقرئ عبرها واقع الأندلس في غرناطة، ظلال من إشارات دقيقة، لكنها متشابكة مع أنساق أخرى، وعندما يتعلَّق الأمر بخطابٍ مباشر، يتخلَّى عن تلك الظلال والإيحاءات، ليلجأ إلى أسلوب تقريعي مباشر، خالٍ من التجميل أو التأويل أو التبجيل، يقرأ الواقع بوجهه الصريح، ويضع الأصابع حيث ينبغي أن تكون، من غير اضطرار إلى إثقال الذهن بتتبع ما وراء السطور.

إن الإجراء الخطابي المباشر غالبًا ما يوجهه إلى عامة الناس، أو إلى أقرانه الذين لا يخضع لهم بسلطة مُلزمة، ولا يضطر معهم إلى مداراة أو مجاملة، ولهذا نجد أن رسائله الثلاث ضمن كتابه (أوصاف الناس في التواريخ والصلات)، لا تُذكَر فيها أسماء المخاطَبين؛ ذاك أنها تتبنَّى أسلوبًا خطابيًا مباشرًا، لا حاجة فيه إلى الالتواء أو الانزواء.

وقد حفلت هذه الرسائل بتعزيز المباشرة في الإجراء الخطابي، عبر كثرة الاتكاءات الدينية في توجيه الخطاب، مع كثافة واضحة في الاستشهاد بالقرآن الكريم، إمعانًا في التحريض على النهوض الديني، وترك التثاقل أمام واقع مأزوم، ففي إحدى تحميداته التي استهلّ بها إحدى رسائله، مهَّد قائلًا: "وخاطب الخلائق على لسانه الصادق بحجَّتي الوعد والوعيد، فكان ممَّا أوحي به إليه، وأنزل الملك به عليه من الذكر الحميد، ليأخذ بالحَجْر

Copyright © 2025, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

والأطواق من العذاب الشديد: {ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد، ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد، وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد، ونُفخ في الصور ذلك يوم الوعيد، وجاءت كل نفسٍ معها سائقٌ وشهيد، لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد}" (ابن الخطيب، د.ت، ص ١٦١). تتبَّع ابن الخطيب إجراءً خطابيًا مباشرًا، أكثرَ فيه من الاقتباس القرآني، لا على سبيل الإيجاز، كما اعتدنا في نصوص نثرية أخرى، بل بغرض التأثير المباشر.

كذلك حين قال:" اعلموا -رحمكم الله- أن الحكمة ضالَّة المؤمن، يأخذها من الأقوال والأحوال، ومن الجماد والحيوان، وألسنة الملوان. فإنَّ الحقَّ نور لا يضرُّه أن يصدر من الخامل، ولا يقتصر بمحموله اقتصار الحامل، وأنكم تدرون أنكم في أطوار لا يستقرُّ لها دون الغاية رحلةٌ، ولا تتأتَّى معها إقامة ولا مهلة، من الأصلاب إلى الأرحام إلى الوجود إلى القبور إلى النشور، إلى إحدى داري البقاء، أفي الله شك؟ فلو أبصرتَ منافسًا في البرية يبني ويعرش، ويمهّد ويفرش، ألم تكونوا تضحكون من جهله، وتعجبون من ركاكة عقله؟ والله، ما أولادكم وشواغلكم عن الله التي فيها اجتهادكم، إلا كبناء سفرٍ في قفر، وإعراس في ليلة نفر، كأنكم بها مطرحة تغثوا فيها المواشي، وتنبو العيون عن حفيرها المتلاشي، إنما أموالكم وأولادكم فتنة، والله عنده أجر عظيم، ما بعد المقيل إلا الرحيل، ولا بعد الرحيل إلا المنزل الكريم أو المنزل الوبيل " (ابن الخطيب، د.ت، ص ١٦٢).

أما الرسالة الثالثة، فيبدأ خطابه فيها بقوله: "إخواني، صُمَّت الآذان والنداء جهير، وكذب العيان والمشار إليه شهير، أين الملك وأين الظهير، أين الخاصة وأين الجماهير، أين القبيل وأين العشير؟ ... صدق والله الناعي وكذب البشير، وعزَّ المستشار واتُّهِم المستشير" (ابن الخطيب، د.ت، ص ١٧١). ثم يتابع: "يا من غدا وراح، وألِف المراح، يا من شرب الراح، ممزوجةً بالعذاب القراح، وقعد لقيان صروف الزمان مقعد الاقتراح، كأنك -والله- باختلاف الرياح وسماع الصياح وهجوم غارة الاجتياح، قد أديل الخفوت من الارتياح، ونسيتَ أصوات الغناء برنّات النياح" (ابن الخطيب، د.ت، ص ١٧٢).

وفي الرسالة الرابعة: "أين الصدقات، إذا حدّقت إلى الأكفِّ الحدقات، أين زُلف الليل، أين الزكاة المتوعد ممسكها بالويل، أين الجهاد، وارتباط الخيل، أين الحج وركبانه يتدافع تدافع السيل، أين تلاوة القرآن، الذي تطمئن به القلوب، أين الخلق الذي لا يصح دونها المطلوب، أين الحظ المغلوب، أين الصبر والسكون وانتظار الفرج ممّن يقول للشيء كن فيكون؟" (ابن الخطيب، د.ت، ص ١٧٨).

لقد اختلفت -كما رأينا- إجراءات ابن الخطيب؛ إذ تخلّى في هذه الرسائل عن أكسية

Copyright © 2025, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

الإيحاء، وترك ظلال التأمل التي تحتاج إلى بحث واستقراء، لأنه يخاطب الشعب خطابًا مباشرًا، لا يحتمل التورية ولا الغموض، ذاك أنه ينتمي إلى السلطة، فحين يتوجه إلى عامة الناس، يلبس ألبسة السلطة، ويحطب في حبل رجالها، لا يحتاج إلى إجراءات خطابية موارِبة، بل يركّز على التأثير والتحريض والإيقاظ، من غير أكسيةِ اتقاء، كالتي نراها مع السلطة أو التي تمسهم بمسّ من تقريع أو نقد أو تحريض، تلك التي تودي بحياته، وهو ما كان.

الخاتمة

لم تكن إجراءات الخطاب عند لسان الدين محضَ بنية لغوية خاضعة للمقام، ولا حيلة أسلوبية تنضبط بالمصطلح البلاغي وحده، بل كانت نظامًا إجرائيًّا متكاملًا، يتقاطع فيه الجمالي بالوظيفي، وتتآلف فيه المقاصد مع الوسائل، ضمن رؤية معرفية لا تنفصل عن الظرف الحضاري والسياسي والاجتماعي للأندلس، ذاك الذي تشكّلت فيه، فمادة الخطاب، وإن تنوّعت في مضامينها، بقيت متّحدة في طرائقها الكبرى، متشاكلةً في نسقها العام، متمايزةً في خصوصياتها التعبيرية بحسب التحول المعرفي والوجداني للمقاصد والأنساق.

وإذا كانت الإجراءات الأسلوبية لدى لسان الدين قد توزَّعت بين خطاب صوفي وآخر سلطاني وثالث جماهيري، فإنّ المشترك بينها لم يتوقَّف عند الحدّ اللفظي أو التضمين النصِّي، بل امتدَّ إلى ما يمكن تسميته بالإجراء الخطابي الذكي، ذاك الذي يحكم على مسار البيان بمضمونه، ويقترح له منطقه الداخلي، فكلّ إجراء خطابي هو شاهد على نوع المقصد الفني عند ابن الخطيب، وكلّ نسق لغوي كان تمثيلًا للتموضع الذاتي في سياق انتخاب الإجراءات الخطابية المناسبة لكل نوع. فادت بعض الإجراءات الخطابية من فسحة النزوع إلى الإيحاء والانزواء، بوصفها خيارًا ذكيًا بديلًا عن الإجراء المباشر، بحسب تغيُّر وجهة الخطاب ومخاطَبه، وهذا التباين لم يكن خاضعًا للمصادفة، بل مشدودًا إلى وعي دقيق بالبنية المعرفية المرتبطة بالمتلقي وسلطة السياق. من هنا، تَشكّلت لدى ابن الخطيب أسلوبية كبرى وأخرى فرعية، بعدد أنواع نثره، لكنها بعامّة وسمتْ خطابَه المعرفي بالملاءمة، وأقامت عبره صلةً ظاهرة أو خفية، بين الذات المبدعة ومجتمعها، بين لحظة التلقي ومحمولات البيان.

ولعلّ أبرز ما تَكشّف من هذه الدراسة، أنّ ابن الخطيب في تكوينه الخطابي، لم يكن مأسورًا لتراكيب الصنعة، على الرغم من تتبُّعه أعلى نماذجها، بل لصيرورة متشابكة تتناسل فيها الخطابات من معينٍ واحد، يتشعّب ولا يتناقض، ويتفرّع ولا ينفصل، وعليه، إنّ فهم نثره لا يبلغ الغاية إلا بوضعه في حاضنته الإجرائية الكبرى، تلك التي تُفضي إلى بنية منفتحة، عميقة الجذور، متشابكة

Copyright © 2025, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

الفروع، تُحيل كلَّ نَصٍّ إلى شبكة من الإجراءات الموائمة، والأنساق المشتركة، والظلال الخاصَّة.

قائمة المصادر

Al-Bukhārī, Muḥammad ibn Ismāʿīl. (1422 AH). *Ṣaḥīḥ al-Bukhārī* (Muḥammad Zuhayr ibn Nāṣir al-Nāṣir, Ed., 1st ed.). Beirut: Dār Ṭawq al-Najāh.

Al-Ḍabbī, Muḥammad ibn Khalaf. (1989). *Bughyat al-Multamis fī Tārīkh Rijāl Ahl al-Andalus* (Ibrāhīm al-Ibyārī, Ed., 1st ed.). Beirut: Dār al-Kitāb al-Lubnānī.

Al-Dhahabī, Shams al-Dīn Muḥammad ibn Aḥmad. (n.d.). *Siyar Aʿlām al-Nubalāʾ* (Shuʿayb al-Arnaʾūṭ, Muḥammad Naʿīm al-ʿArqasūsī, Kāmil al-Khaṭṭār et al., Eds.). Beirut: Muʾassasat al-Risāla.

Al-Ḥimyarī, Muḥammad ʿAbd al-Munʿim. (1984). *Al-Rawḍ al-Miʿṭār fī Khabar al-Aqṭār* (Iḥsān ʿAbbās, Ed., 2nd ed.). Beirut: Maktabat Lubnān.

Al-Idrīsī, Muḥammad ibn ʿAbd Allāh. (2002). *Nuzhat al-Mushtāq fī Ikhtirāq al-Āfāq*. Cairo: Maktabat al-Thaqāfa al-Dīniyya.

Al-Kutubī, Muḥammad ibn Shākir. (1973). *Fawāt al-Wafayāt* (Iḥsān ʿAbbās, Ed.). Beirut: Dār Ṣādir.

Al-Maqarrī, Shihāb al-Dīn Aḥmad ibn Muḥammad. (n.d.). *Azhar al-Riyāḍ fī Akhbār al-Qāḍī ʿIyāḍ* (Ibrāhīm al-Ibyārī et al., Eds.). Faḍāla: Maṭbaʿat Faḍāla.

Al-Maqqarī, Aḥmad ibn Muḥammad. (1968). *Nafḥ al-Ṭīb min Ghuṣn al-Andalus al-Raṭīb* (Iḥsān ʿAbbās, Ed.). Beirut: Dār Ṣādir.

Al-Rāzī, Muḥammad ibn ʿUmar. (1988). *Al-Shafāʿa al-ʿUẓmā Yawm al-Qiyāma* (Aḥmad Ḥijāzī Aḥmad al-Saqqā, Ed., 1st ed.). Cairo: al-Maktaba al-Azharīya li-l-Turāth.

Al-Ṣafadī, Ṣalāḥ al-Dīn Khalīl ibn Aybak. (2000). *Al-Wāfī bi-l-Wafayāt* (Aḥmad al-Arnaʾūṭ, Ed., 1st ed.). Beirut: Dār Iḥyāʾ al-Turāth al-ʿArabī.

Al-Tinbuktī, Aḥmad Bābā. (1989). *Nayl al-Ibtihāj bi-Taṭrīz al-Dībāj* (ʿAbd al-Ḥamīd ʿAbd Allāh al-Harāma, Superv., 1st ed.). Libya: n.p.

Brockelmann, Carl. (1968). *Tārīkh al-Shuʿūb al-Islāmiyya* (Nabīh Amīn Fāris & Munīr al-Baʿlabakkī, Trans., 5th ed.). Beirut: Dār al-ʿIlm li-l-Malāyīn.

Ibn al-Abbār, Muḥammad ibn ʿAbd Allāh. (1985). *Al-Ḥulla al-Sīrāʾ* (Ḥusayn Muʾnis, Ed., 2nd ed.). Cairo: Dār al-Maʿārif.

Ibn al-Abbār, Muḥammad ibn ʿAbd Allāh. (1995). *Al-Takmila li-Kitāb al-Ṣila* (ʿAbd al-Salām al-Harrās, Ed.). Beirut: Dār al-Fikr.

Ibn al-Dalāʾī, Aḥmad ibn ʿUmar ibn Anas al-ʿUdhri. (n.d.). *Tarṣīʿ al-Akhbār wa-Tanwīʿ al-Āthār, wa-l-Bustān fī Gharāʾib al-Buldān wa-l-Masālik ilā Jamīʿ al-Mamālik* (ʿAbd al-ʿAzīz al-Ahwānī, Ed.). Madrid: Maḥṭūtāt Maʿhad al-Dirāsāt al-Islāmiyya.

Ibn al-ʿImād, ʿAbd al-Ḥayy ibn Aḥmad. (1986). *Shadharāt al-Dhahab fī Akhbār man Dhahab* (Maḥmūd al-Arnaʾūṭ, Ed., 1st ed.). Damascus: Dār Ibn Kathīr.

Ibn al-Khaṭīb, Lisān al-Dīn. (1980). *Rīḥānat al-Kuttāb wa-Nujʿat al-Muntāb* (Muḥammad ʿAbd Allāh ʿInān, Ed., 1st ed.). Cairo: Maktabat al-Khānjī.

Ibn al-Khaṭīb, Lisān al-Dīn. (1983). *Al-Katība al-Kāmna fī Man Laqīnāhu bi-l-Andalus min Shuʿarāʾ al-Miʾa al-Thāmina* (Iḥsān ʿAbbās, Ed.). Beirut: Dār al-Thaqāfa.

Copyright © 2025, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

Ibn al-Khaṭīb, Lisān al-Dīn. (1990). *Sharḥ Raqm al-Ḥulal fī Naẓm al-Duwal* (ʿAdnān Darwīsh, Ed.). Damascus: Manshūrāt Wizārat al-Thaqāfa.

Ibn al-Khaṭīb, Lisān al-Dīn. (2002). *Miʿyār al-Ikhtiyār fī Dhikr al-Maʿāhid wa-l-Diyār* (Muḥammad Kamāl Shabāna, Ed.). Cairo: Maktabat al-Thaqāfa al-Dīniyya.

Ibn al-Khaṭīb, Lisān al-Dīn. (2003). *Al-Iḥāṭa fī Akhbār Gharnāṭa* (Yūsuf ʿAlī al-Ṭawīl, Ed., 1st ed.). Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya.

Ibn al-Khaṭīb, Lisān al-Dīn. (2006). *Al-Siḥr wa-l-Shiʿr* (J. M. Continente Pérez, Ed., 1st ed.). Jableh: Badāyāt li-l-Ṭibāʿa wa-l-Nashr wa-l-Tawzīʿ.

Ibn al-Khaṭīb, Lisān al-Dīn. (n.d.). *Al-Lamḥa al-Badriyya fī al-Dawla al-Naṣriyya* (Muḥammad Masʿūd Jibrān, Ed., 1st ed.). Libya: Dār al-Madār al-Islāmī.

Ibn al-Khaṭīb, Lisān al-Dīn. (n.d.). *Awṣāf al-Nās fī al-Tawārīkh wa-l-Ṣilāt, talīhā al-Zawājir wa-l-ʿIẓāt* (Muḥammad Kamāl Shabāna, Ed.). Morocco–UAE: Ṣundūq Iḥyāʾ al-Turāth al-Islāmī.

Ibn al-Khaṭīb, Lisān al-Dīn. (n.d.). *Jaysh al-Tawshīḥ* (Hilāl Nāǧī, Ed.). Tunis: Maṭbaʿat al-Manār.

Ibn al-Khaṭīb, Lisān al-Dīn. (n.d.). *Rawḍat al-Taʿrīf bi-l-Ḥubb al-Sharīf* (ʿAbd al-Qādir Aḥmad ʿAṭā, Ed.). Cairo: Dār al-Fikr al-ʿArabī.

Ibn Bassām, ʿAlī ibn Bassām al-Shanṭarīnī. (1997). *Al-Dhakhīra fī Maḥāsin Ahl al-Jazīra* (Iḥsān ʿAbbās, Ed.). Beirut: Dār al-Thaqāfa.

Ibn Farḥūn, Ibrāhīm ibn ʿAlī. (1996). *Al-Dībāj al-Mudhhab fī Maʿrifat Aʿyān ʿUlamāʾ al-Madhhab* (Maʾmūn ibn Muḥyī al-Dīn al-Jinān, Ed., 1st ed.). Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya.

Ibn ʿIdhārī al-Marrākushī. (1983). *Al-Bayān al-Mughrib fī Akhbār al-Andalus wa-l-Maghrib* (G. S. Colin & E. Lévi-Provençal, Eds., 3rd ed.). Beirut: Dār al-Thaqāfa.

ʿInān, Muḥammad ʿAbd Allāh. (1968). *Lisān al-Dīn Ibn al-Khaṭīb: Ḥayātuhu wa-Turāthuhu al-Fikrī* (1st ed.). Cairo: Maktabat al-Khānjī.

Khālid, Khālid. (2021). *Al-Rasāʾil al-Nathriyya fī al-Dhakhīra li-Ibn Bassām al-Shanṭarīnī: Ittijāh al-Maḍāmīn wa-Khaṣāʾiṣ al-Aslūb* (1st ed.). Ankara: Sunjāq Academy.

Khālid, Khālid. (2024). *Riḥalāt Ibn al-Khaṭīb al-Andalusī bayna al-ʿUdwateyn al-Andalusiyya wa-l-Maghribiyya* (1st ed.). Ankara: Sunjāq Academy.

Muslim, Muslim ibn al-Ḥajjāj. (n.d.). *Ṣaḥīḥ Muslim* (Muḥammad Fuʾād ʿAbd al-Bāqī, Ed.). Beirut: Dār Iḥyāʾ al-Turāth al-ʿArabī.

Tīm, Muḥammad Shaḥāda. (1994). *Mafhūm al-Akhlāq fī al-Shiʿr al-ʿArabī fī al-ʿAṣr al-ʿAbbāsī al-Awwal* (PhD diss.). Mecca: Jāmiʿat Umm al-Qurā.

ʿUmar, Aḥmad. (2019). *Al-Muʾaththirāt al-Islāmiyya fī Adab Lisān al-Dīn Ibn al-Khaṭīb* (1st ed.). Aleppo: Dār Nūr Fūr li-l-Nashr wa-l-Ṭibāʿa wa-l-Tawzīʿ.

València, Ángel González. (n.d.). *Tārīkh al-Fikr al-Andalusī* (Ḥusayn Muʾnis, Trans.). Miṣr: Maktabat al-Thaqāfa al-Dīniyya.

Yāqūt al-Ḥamawī, Shihāb al-Dīn. (1997). *Muʿjam al-Buldān*. Beirut: Dār Ṣādir.

Copyright © 2025, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)